تاريخ العدد ٢٠١٠/٠٧/٣٠ **العدد** ١١٦٥٤

على الحافة

ما الذي يدفعنا للدفاع عن الطبيعة؟

حبيب معلوف

لا يبدو هذا السؤال بديهيا في وقت عقدت في العالم آلاف المؤتمرات الدولية في الاربعين سنة الاخيرة، ووقع على عشرات الاتفاقيات والبروتوكولات الدولية التي تطالب بحماية البيئة والتنوع البيولوجي فيها. الا ان كل ذلك لا يمنع من اعادة التعمق بالدوافع. فهل دفاعنا عن الطبيعة اليوم، هو فعلا طبيعي؟ ام هو ناجم عن ثقافتنا عن الطبيعة، او عن علمنا بنظامها الايكولوجي؟ هل ندافع عنها لاننا نحبها؟ وما دوافع الحب؟ هل لأنها مجرد مصدر للموارد؟ هل بدافع أخلاقي ام بدافع اقتصادي نفعي ام بدافع جمالي؟

من ضمن الانشغال بمسألة البيئة في العالم اسس بعض الفلاسفة ما يسمى «جماليات البيئة» او «الجماليات الخضراء». وقد ظهر هذا التعبير، منذ ٣٠ سنة فقط، بحسب الكاتب الجزائري جمال مفرج في كتابه» الفلسفة المعاصرة» الصادر العام الماضي عن «الدار العربية للعلوم ناشرون». وهو يذكر من بين المفكرين الذين ساهموا في انتاج المفهوم آلن كارلسون ومارتن سيل وناتالي بلون. وقد عمل هؤلاء على توسيع اهتمام علم الجماليات التقليدي الذي صرف اهتمامه عن الطبيعة ووجهه نحو الفنان وأعماله الفنية، او نحو ميوله المعروضة في صالات العرض الفني... حين فقد علم الجمال صلته بالحياة، واكتفى بالتفرج على الانتهاكات التي تتعرض لها الطبيعة .

لم يكن هذا التوجه الجمالي من دون جذور وخلفيات فلسفية، فشوبنهاور حدد وظيفة علم الجمال بالهروب من الحياة والاستغراق في التأمل. وهيغل حصر موضوع علم الجمال في الحقل الفني فقط، من دون الجمال الطبيعي حين قال: «إن كل ما يأتي من الروح اسمى مما هو موجود في الطبيعة. وأردأ فكرة تخترق فكر انسان افضل وأرفع من أعظم إنتاج للطبيعة». هذه المقولات من فلاسفة كبار، دفعت آخرين الى استبعاد الطبيعة من اهتمامهم، لا بل قام البعض بإدانتها حين بدت لهم قبيحة وعديمة الجمال. وهذا ما يظهر ايضاً ان الجماليات، كانت مرتبطة بشكل او بآخر بالأخلاقيات وبنظرة الإنسان إلى الطبيعة .

ولكن السؤال او الأسئلة التي ظلت تطرح هي: لماذا يثير الجمال الطبيعي اهتمامنا؟ وهل الاعتبارات الجمالية وحدها هي التي تدفعنا الى المحافظة على الطبيعة؟ ام ان هناك اعتبارات اخرى (كتلك الأخلاقية) أيضا؟

اجمع الكثير من الفلاسفة ان لا اخلاق خارج المجتمع، او خارج الجماعة. فلو ترك الانسان وحده في غابة لما زرع ورود الزينة ولا اهتم فيها. فالتزين فعل إغراء ومرتبط بالآخر او بالجماعة، مرتبط بالتمدن والتحضر، وكذلك الامر بالنسبة للأخلاق. فالناس لن يقتنعوا بضرورة معالجة التلوث الا اذا كانوا يعتقدون ان التلوث شيء مرذول أخلاقياً. وهنا المفارقة الكبرى. فبقدر ما يعتبر التلوث من اهم ضرائب التمدن والمدنية، كذلك لا يمكن معالجته اليوم الا على اسس أخلاقية مدنية. بهذا المعنى، لا معنى للدعوة الى العودة الى الطبيعة لمعالجة مشاكل البيئة اليوم .

واذ يؤكد كانط (الفيلسوف الألماني) استحالة توصل البشر، قبل تمدنهم، الى التقدير الجمالي لبيئتهم الطبيعية، يؤكد روسو بالمقابل ان اهتمام الانسان بجمال الطبيعة ظهر في المجتمعات البدائية وأن التمدن هو الذي حرم الانسان من التمتع بجمال الطبيعة. صحيح ان علوم الجيولوجيا والاركيولوجيا قد اثبتت صحة نظرية روسو، الا اننا لا نستطيع اليوم ان نعيد النظر بعلاقتنا بالطبيعة وحمايتها الا على قواعد اخلاقية مدنية جديدة .

يرى آلن كارلسون ان تقدير الجمال الطبيعي اليوم واستحسانه باتا يتطلبان العلم بالطبيعة .بمعنى ان الأخلاق الجديدة تتطلب العلم بعلوم العصر ولا سيما البيولوجيا.

فلكي تصبح الطبيعة موضوع استحسان وتقدير، يجب ان تعرف اولا معرفة موضوعية .
واذ يعتقد كارلسون ان المعرفة بنفسها ممتعة جمالياً، يرفض لوك فري رد علم الجمال الى الاخلاق مميزا بين ثلاثة مواقف نتخذها من الطبيعة: الموقف العلمي والايكولوجي الذي ينظر الى الطبيعة كمكان للحياة وكشرط لوجودنا، والموقف الاقتصادي او البرغماتي الذي ينظر الى الطبيعة كمصدر للموارد الذي يلبي حاجاتنا، والموقف الجمالي الذي ينظر الى الطبيعة كموضوع للتأمل بمعزل عن فائدتها الاقتصادية وأهميتها الحيوية .
ومهما بدى الاختلاف في النظريات والنظرات الى الطبيعة، فإنها جميعا تشترك في حاجتها الى وجود وبقاء الطبيعة نفسها أولا. وهكذا فإن الاعتبارات العلمية والأخلاقية والجمالية والذرائعية... يفترض ان تشكل دوافع كافية لحمايتها لمصلحة الطبيعة نفسها من جهة ومصلحة الإنسان ووجوده وبقائه من جهة أخرى .